القرآن

إنه أعجب كتاب عرفته الإنسانية بين جميع الكتب السماوية والبشرية : فهو كتاب ثبت بنصه أربعة عشر قرناً أو يزيد . لم يطرأ عليه تغيير واحد . لم يحذف منه حرف . ولم يضف إليه حرف : وبقى يقرأ ويكتب ويدرس . ويناقش . فى نصه الأصيل . والإنجيل والتوراة ترجم كل منهما إلى اللغات الأخرى بل إلى كل اللغات . لا ليفهمها الراغبون فى الدرس العلمى البحت : بل ليتعبد بهما فى ترجماتهما المسيحيون واليهود .

أما القرآن . فعلى الرغم من أنه ترجم إلى كل لغات الأرض . فقد بقى فى نصه الأصيل . ككتاب للعبادة . لا يقرأ سواه . ولا يتلى غيره . فى القارات الخمس . وعلى مدى القرون المتتابعة . وعلى الرغم من تطورات عظيمة طرأت على العالم . سياسياً واقتصادياً : واجتماعياً : ودينياً : وعلى تغيير الحدود الجغرافية : ونشوء وسائل جديدة لا حصر لها فى كل درب من دروب الحياة وتغيير أسلوب الناس . فى كل ما يتناولونه أو يضطربون فيه .

وقد لا يكون هذا أمراً غريباً : يستوقف النظر ، إذا كان المؤمنون للقرآن والقارئون له : من أبناء العربية التى كتب بها ، ولكن الواقع غير ذلك : فالمسلمون ينتشرون فى أفريقيا وآسيا ، وهم موجودون فى أوربا وأمريكا : ولغاتهم ولهجاتهم متباينة . وكثرتهم العظمى : لا تقرأ العربية ، وقد لا تفهمها ، ولكنهم يتعبدون بالقرآن بنصه العربى . وفيهم من يحفظه عن ظهر قلب . وينطق بآياته نطقاً صحيحاً ، متفقاً مع قواعد اللغة ونحوها . ومع ذلك : يعجز عن أن يرد عليك ، بكلمتين عربيتين : إذا خاطبته بالعربية .

وأغرب من هذا . أن الملايين تحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب . من أوله إلى آخره . والجماهير التي لا تحفظه . تعرف بما يشبه الغريزة موطن الخطأ فيه إذا انتقل حرف من موضعه . أو إذا استبدل القارئ حرف الفاء . بحرف الواو مثلا .

والمسلمون لا يقرءون القرآن فقط . بل إنهم يرتلونه . ثم يوقعونه بما يسمى التجويد . على وضع معروف . له قواعد وأصول . فإذا أدى على هذه الصورة كان له أثر عميق في نفوس سامعيه . يبعث نشوة الإعجاب . ولقراءاته أصول جمعها علم . اسمه علم القراءات . بينوا أن من هذه القراءات الصحيح والمشهور والشاذ . ثم ألفوا في هذه القراءات وأصولها الكتب (١) .

أما النص القرآني نفسه . فيقوم على دراسته أكثر من علم : يدرس فيه علماء أصول الدين ما جاء فيه عن الله سبحانه . وعن ملائكته ورسله ، وكتبه واليوم الآخر . وعن العبادات . من صلاة وصوم وزكاة وحج . ويدرس فيه الفقهاء الأحكام ومصادرها . وطرق الاستدلال عليها ؛ ويدرس فيه أهل اللغة قواعد اللغة . ونحوها وصرفها . وأهل البلاغة والبيان والبديع ، أصول هذه العلوم جميعًا .

وكلما مرت الأيام زادت هذه العلوم اتساعًا . وزاد أصحابها فيها تعمقًا . وانقسموا إلى المدارس والمذاهب ، وقام بينهم حوار وجدل ، وأثمر هذا كله كتبًا وموسوعات .

فهو بحق أعجب كتاب عرفته الإنسانية . لا يشبهه في صفاته وخصائصه ، وتأثيره على الذين يؤمنون به . أي كتاب آخر ، يؤمن به

---

(١) من ألفوا في علم القراءات : أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأحمد بن جبير الكوفي وإسماعيل بن إسحق المالكي ، وأبو جعفر بن جرير الطبري ، وأبو بكر محمد أحمد بن عمر الداجوني ؛ وأبو بكر بن مجاهد . .

أتباع أى دين غير دين المسلمين .

نزل القرآن أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بغار حراء ، على بعد ثلاثة أميال من « مكة » ، فى شهر رمضان . وقد اختلف الرواة فى اليوم الذى تم فيه النزول ، فهو فى أقوالهم السابع ، أو السابع عشر ، أو الرابع والعشرون . كما اختلف فى سنة نزوله ، أتكون السنة الأربعين بعد عام الفيل ، والرسول آنذاك فى الأربعين من عمره — أم الحادية والأربعين ؟ وكان أول ما نزل من القرآن — على القول الراجح — (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

ثم نزلت سورة « المدثر » كاملة ، فكانت أول سورة من سور القرآن تنزل كاملة . أما سورة اقرأ فلم ينزل منها سوى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم) .

وقد استمر نزول القرآن اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يوماً . .

وقد بلغت سور القرآن ١١٤ سورة ، وبلغت عدة الآيات فى هذه السور ٦٢٣٦ آية . وقد قسمت السور إلى ثلاثين جزءاً ، وقسم الجزء إلى حزبين ، والحزب إلى أربعة أرباع .

وقد ورد حديث يقول : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وقد اختلف فى معنى هذا الحديث ، على نحو أربعين قولا ، نجمل أهمها فيما يأتى [١] .

١ — المراد سبع لغات ، وهى لهجات يتكلم بها العرب . واعترض على هذا الرأى بأن لغات العرب أكثر من سبع لغات ، فقيل إن المقصود هو أفصح تلك اللغات .

---

(١) الإتقان لجلال الدين السيوطى .

٢ — وقيل بأن الأحرف السبعة هي سبع قراءات للفظ القرآن . منها الصحيح . والشاذ والضعيف والمنكر .

٣ — وقال ابن قتيبة : إن المراد . الأوجه التي يقع بها التغاير فأولها ما يتغير حركته . ولا يزول معناه ولا صورته مثل (ولا يضار كاتب) بالفتح أو الرفع . وثانيها ما يتغير بالفعل من أمر وكان في صيغة الطلب أو الماضي . وثالثها ما يتغير باللفظ مثل ننشرها وننشزها . ورابعها ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل (طلح منضود . وطلع منضود) . وخامسها ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل (وجاءت سكرة الموت بالحق) بدلا من (وجاءت سكرة الحق بالموت) وسادسها ما يتغير بزيادة أو نقصان مثل الذكر والأنثى (وما خلق الذكر والأنثى) وسابعها ما تغير بإبدال كلمة بأخرى مثل (كالعهن المنفوش) و (الصوف المنفوش) .

٤ — وقال رأى رابع : الكلام لا يخرج عن سبعة أوجـــه في الاختلاف . في الأسماء : الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث ، وفي الأفعال من ماض . ومضارع وأمر . والثالث وجوه الإعراب . من نصب ورفع وخفض . والرابع النقص والزيادة . والخامس التقديم والتأخير . والسادس الإبدال . والسابع اختلاف اللغات واللهجات (كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإدغام والإظهار) ونحو ذلك .

واختلف أيضاً في تسمية القرآن . فقائل إنه أطلق عليه القرآن اسما خاصاً به . كالإنجيل والتوراة . غير مشتق . خاص بكلام الله . وقد سمي قرآناً . ليختلف عن ما يسمى به العرب مجموع أشعارهم وهو « الديوان » وسمى القسم من كلامه « سورة » . ليختلف عن « القصيدة » عند العرب . وسميت أجزاء السورة « بالآية » بدلا من بيت الذى هو جزء القصيدة . وسمى آخر الآية « فاصلة » . بدلا من قافية في الشعر العربي .

وقيل إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء . لأنه يقرن السورة بالسورة .

وقيل مشتق من « القرائن » لأن آيات الله يصدق بعضها بعضًا وقيل إنه مشتق من « القرء » أى الجمع .

ويسمى القرآن أيضًا : بالكتاب . والكلام . والنور . والهدى . والرحمة . والفرقان . والشفاء . والموعظة . والذكر . والحكيم . والقول . والنبأ العظيم . وأحسن الحديث . والمثانى . والتنزيل . والروح . والوحى . والبصائر . والبيان . والعلم . والحق . والصدق . والعدل . والأمر . والبشرى . والبلاغ .

* * *

ويهمنا فى تاريخ « القرآن » أمران . أولهما كيف كانت تنزل الآيات ؟ وثانيهما كيف جمع القرآن ؟ لأن ما يتعلق بهاتين الناحيتين موضح بأجلى بيان . إن القرآن . وإن كان كتابًا سماويًا . كان للناس أعظم نصيب فى جمع آياته . وتحديد أحكامه مما يؤيد رأينا من أن الإسلام دين الإنسان أساسًا . وشكلا . أو جوهراً . ومظهراً . والقرآن وهو دستور هذا الدين . وكتابه المبين . يحمل من خصائص الدين الإنسانية ما يحمله الدين نفسه .

خذ مثلا أن هذا القرآن لم ينزل مرة واحدة على الرسول ، ولم يصدر كما تصدر شرائع هذه الأيام . دفعة واحدة ، فقد قلنا إن الوحى استمر ينزل بآى القرآن وأحكامه اثنتين وعشرين سنة . وشهرين وعشرين يومًا .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »(١) .

ورد على اعتراض المشركين : « وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة »(٢) ، وأجاب عن ذلك إجابتين فقال : « كذلك لنثبتَ به فؤادك »(٣) ؛ وقال تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق

---

(١) الإسراء : ١٠٦ .
(٢) الفرقان : ٣٢ .
(٣) الفرقان : ٣٢ .

وأحسن تفسيراً (١) . فنزول القرآن مقسطاً أو منجماً . طوال هذه السنوات كان ليثبت قلب الرسول ، فى وجه الصعاب التى تعترض سبيله ، وبطء الناس فى الالتفاف حوله . والالتفات إليه ، وما يراه من ضعف الناس . وشدة جزعهم فى الإدبار . وعظيم فرحهم فى الإقبال ، وادعائهم غير ما يضمرون . وطلبهم ما لا يستحقون . وكان أيضاً ليقرأه الناس على مكث . لتستقر معانيه فى النفوس . ولكيلا يأتى المشركون بمثل . إلا ويرد عليه القرآن بأحسن منه ، وليفسره ، ويبين فيه وجه الحق : «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» .

وما يقوله بعض العلماء من أن الرسول لم يأمر بجمع القرآن فى حياته ؛ لأنه كان يعلم بأن فى القرآن الناسخ والمنسوخ . أى أن بعض أحكام سيستبدل بها غيرها ، فهذا المعنى يتصل بما نحن فى صدده من قول ، لأن مؤدى هذا الكلام ، أنه كان للأحداث والتطورات وحجج الخصوم ، « ومسلكهم ، صداه فى القرآن » .

وقد جاء فى كتاب تاريخ التشريع للشيخ محمد الخضرى :

« وكانت الآيات التشريعية ، وهى آيات الأحكام ، تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الغالب جواباً لحوادث فى المجتمع الإسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً ، وجعلوها أساساً لعلم القرآن ، وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض أصحابه ، وقليلا ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة » .

وفى القرآن من الآيات ما يدل بعضها على أنها جواب لأسئلة ، منها : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ، (ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين) ، (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) ،

---

(١) الفرقان ٣٣ .

(ويسألونك عن الساعة أيان مرساها) . (ويسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) . (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) . (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى) . (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) . (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) .

وجلى أن هذه الأمثلة : شملت الصغير والحقير . وما يتعلق بالغيب . وما يتعلق بشئون العيش . فمن الروح إلى الحيض ، ومن الساعة إلى الخمر ومن الأنفال إلى الهلال . وهكذا . .

إنه كتاب للناس حقاً : لا يحتقر خاطراً يجول برأس إنسان ، ولا يتعالى عن سؤال من امرأة أو أعمى ضرير .

نزل القرآن بأنه (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) فجاء أعمى يشكو فأصبحت الآية : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) .

* * *

وقد قسم القرآن إلى مكى ومدنى . والمكى عموماً هو ما نزل فى مكة وما حولها من القرى والمواقع . كعرفات ومنى . والحديبية . والمدنى ، هو ما نزل فى المدينة وما حولها كبدر وأحُد . وقد اختلف العلماء فيما يعتبرون مكياً ، وما يعتبرونه مدنياً ، فكانت لهم فى ذلك ثلاثة مذاهب :

الأول : أن المكى : ما نزل قبل هجرة الرسول ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء نزل بمكة أو بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع . أو بسفرة من الأسفار .

والثانى : أن المكىّ ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة .

والثالث : أن المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة .

ونحن لا يهمنا بيان هذا المذهب فى ذاته ، إلا من ناحية

التدليل على أن نزول القرآن . كان صدى لما يجرى فى المجتمع الإسلامى . وأنه كان يسجل أحداثًا . ووقائع الحركة الإسلامية : فى مدّها وجزرها . وفى اصطدامها بالمشركين وتعثرها فى العقبات . وفى انتصارها على الخصوم . وقهرها إياهم . ودحض أكاذيبهم وتفنيد دعاويهم .

ولذلك يقولون : إن صيغة الخطاب فى الآيات المكية : هى : (يأيها الناس) و (يا بنى آدم) فى حين أن صيغة الخطاب فى الآيات المدنية : (يأيها الذين آمنوا) .

ويقولون : إن السور المكية خلت من آيات الأحكام . إذ أن هذه الآيات نزلت فى القسم المدنى من القرآن : ذلك أن الإسلام فى مكة كان فى مرحلة الدعوة . وجمع الأنصار . ولم يكن المجتمع الإسلامى قد تكون بعد . إذ أن المسلمين كانوا قلة . وكانوا يعانون عدوان الأكثرية القريشية وحصارها لهم . ومقاطعتها إياهم . فلما تمت الهجرة . واستطاع المسلمون أن ينازلوا القريشيين فى غزوة بدر . وأن ينتصروا على خصومهم . أصبح الأمر يقتضى تشريعًا . فكان التشريع .

ومن الحقائق التى تظهر اتصال القرآن بالحياة . وبالدعوة الإسلامية . وبكل ما يتصل بها . وبكل ما يثيره خصومها من حجج . أن ثلث القرآن نزل ردًّا على جدل اليهود . وتشكيكهم . وسخريتهم بالنبى وبالمسلمين .

ولما كانت إقامة الرسول فى مكة . أطول من إقامته فى المدينة ، إذ بلغت إقامته فى مكة بعد الدعوة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا . فى حين بلغت إقامته فى المدينة . تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام . فإن المكى من القرآن ١٩ جزءاً . والمدنى ١١ جزءاً . وجملة الاثنين ثلاثون جزءاً .

ولم يكن نزول القرآن ردًّا على الكفار والمشركين واليهود وجدلا معهم ، ولا إجابة عن أسئلة المسلمين فقط ، بل كان ينزل أحيانًا بنص العبارة

التى تأتى على لسان بعض صحابة الرسول . ومما يذكر مثلا على ذلك : قوله تعالى : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) . فقد نزلت فى سورة البقرة عام حجة الوداع . لما طاف النبى : فقال له عمر : هذا مقام أبينا إبراهيم الخليل قال : نعم ؛ قال : أفلا نتخذه مصلى ؟

وأغضبت بعض نساء الرسول . الرسول عليه الصلاة والسلام . فاشتد عليهن عمر . وقال : (لعل الله يبدله أزواجاً خيراً منكن) . فنزلت الآية فى سورة « التحريم » : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) ؛ وقال عمر : قلت : يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن . فإنهن يكلمن البر والفاجر : فنزلت آية الحجاب .

* * *

وفى القرآن جانب يريك كم كان هذا الكتاب حيًّا . قال الحسن : كنا لا ندرى ما الأرائك حتى وفد علينا رجل من أهل اليمن . فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير[1] ، فالقرآن لم يستعمل لغة الحجاز وحدها . بل استعمل ألفاظاً من لهجات جميع القبائل « فمعاذير » هى « ستور » بلغة اليمن و « المسطور » هو الكتاب بلغة حِمْيَر ؛ و « خاسئين » : « صاغرين » بلغة كنانة . و « شروا » : « باعوا » بلغة هذيل . « زيلنا » : « ميزنا » بلغة حِمْيَر ، و « القطر » : «النحاس» بلغة جُرْهُم . و « الرس » : « البئر » بلغة أزد ، و « الوصيد » : « الفناء » بلغة مذحج . و « لينة » : « نخلة » بلغة الأوس .

بل إن فى القرآن ألفاظاً غير عربية ؛ وقد أنكر ذلك الإمام الشافعى ؛ وقال أبو حنيفة إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، وقال ابن فارس : لو كان فيه من غير لغة العرب لتوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها . ولكن جمهور العلماء يرى أن فى القرآن عدداً غير قليل من

---

(١) المختار من الإتقان فى علوم القرآن .

الألفاظ الأعجمية . وهذا دليل على أن اللغات فى فترات حياتها وشبابها تكون من القوة والثقة بنفسها . والتفتح على غيرها . بحيث تضم إلى مفرداتها ما تراه جاريًا على قياس ألفاظها . ووزن كلماتها دون خشية أو تردد .

على أن تاريخ كتابة القرآن . ثم جمعه . ثم الاتفاق على مصحف واحد . أى جمع رسمى للقرآن . وإبطال ما عداه . يزيد من ظهور خصائص هذا الكتاب الإلهى الإنسانية . واتصال نزوله . وتقرير أحكامه بالناس ، وبما يجرى فى حياة المسلمين . وما يساورهم من شكوك ، وما يقيمه خصومهم فى وجوههم من حجج ، وما يعترض حياتهم من مشكلات العمل وعوائق الظروف وملابساتها .

حدث زيد بن ثابت قال : « قبض النبى . صلى الله عليه وسلم . ولم يكن القرآن قد جمع فى شىء » . وقال الخطابى : « إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف . لما كان يترقبه من ورود ناسخ ومنسوخ لبعض أحكامه أو تلاوته . فلما انقضى نزوله بوفاته ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر » .

وقال الحاكم فى المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات :

١ — إحداها بحضرة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، عن زيد بن ثابت . قال : « كنا عند رسول الله ، نؤلف القرآن من الرقاع » . والمراد بتأليف ما نزل من الآيات المفرقة فى سورها ، جمعها فيها بإشارة النبى عليه السلام .

٢ — والثانية بحضرة أبى بكر . عن زيد بن ثابت قال : « أرسل الىّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة [١] ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل استحر بقراء القرآن

---

(١) وهى إحدى معارك المسلمين مع المرتدة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن . وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر : نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال : هو — والله — خير . فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف . وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة عند أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

٣ — والجمع الثالث هو ترتيب السور فى زمن عثمان . عن أنس : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وهو يشترك فى غزو ثغور أرمينية مع أهل الشام ، وغزو أذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القرآن ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة زوجة الرسول وابنة عمر بن الخطاب ، وكان القرآن الذى كتب فى عصر أبى بكر قد أودع لديها : أن أرسلى إلينا الصحف ، ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك .

وأمر عثمان فألف من زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، هيئة لترتيب السور فى مجلد واحد أو مصحف — ولمراجعة النصوص التى به فى الصحف التى كانت عند حفصة . وقال عثمان للرهط القريشيين — أى القريشيين من أعضاء هذه الهيئة — إن اختلفتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم فقط ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق (١) .

---

(١) المختار من الإتقان فى علوم القرآن ص ٥٤ .